النهضة الأوربية بين مؤثرين الحضارة العربية والحروب الصليبية

د. حميد دولاب حنيدان *

قسم المؤرخون والباحثون في مجال التاريخ ، التاريخ العالمي الى عدة حقب زمنية ، أطلقوا على كل واحد منها عصرا ، ويمتد العصر الى فترة زمنية تصل الى قرن أو عدة قرون ، تكون السمات الأساسية فيه متشابهة ، مثل العصر القديم ، والوسيط ،والحديث ، والمعاصر . ولا يكتفي المؤرخون بهذا التقسيم بل يقسمون العصر الواحد الى عدة فترات زمنية . ويصعب علينا في الوقت ذاته أن نحدد بشكل دقيق باليوم والشهر والسنة بداية أي عصر من هذه العصور وكذلك نهايته ، حيث لا يمكن الانتقال من عصر الى آخر بشكل مفاجئ وسريع بل تتم عملية الانتقال هذه بشكل تدريجي وبطيء مع ظهور سمات جديده نطلق عليها مقدمات الانتقال من عصر إلى آخر ، وتنشأ هذه المقدمات في أحشاء العصر المنصرم وتهيئنا للانتقال الى العصر الجديد الذي يليه . ومع اعتماد المؤرخين أحداثا عالمية شهيرة تفصل بين عصر وآخر مثل سقوط روما عام 476م الذي شكل نهاية الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومعلنا نهاية العصر

* أستاذ مشارك – قسم التاريخ – كلية الآداب والألسن – جامعة ذمار

القديم وبداية العصر الوسيط ويمثل سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين الأتراك عام 1453م نهاية العصر الحديث وتعد الحرب العالمية الأولى عام 1914 نهاية العصر الحديث وبداية التاريخ المعاصر الذي مازال مستمرا . فأن هذا التقسيم الذي يراد من ورائه تسهيل دراسة تاريخ كل حقبة على انفراد ، لا يشكل سور الصين العظيم بين عصر وآخر ، كون الأحداث التاريخية متداخلة ومرتبطة بعضها بالبعض الآخر . وكما ذكرنا فإن عملية الانتقال من عصر إلى آخر لا تتم إلا عبر مرحلة انتقالية لها سماتها الخاصة ، وقد تشكل هذه المرحلة الانتقالية عصراً بحد ذاته كما هو الحال بالنسبة لعصر النهضة الأوربية الذي شكل مرحلة انتقالية بين العصور الوسطى الأوربية والعصر الحديث من التاريخ الأوربي .

إن النهضة الأوربية لن تحدث في ليلة وضحاها في القرن الرابع عشر ، بل كانت امتداداً منطقياً لنضالات وكفاح الشعوب الأوربية ضد جور وظلم وتعسف واضطهاد الاقطاع والكنيسة في العصور الوسطى . فقد أثار الاستثمار الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى مقاومة شديدة من الفلاحين والحرفيين . وكان نضال الفلاحين في هذه المرحلة موجهاً ضد القنانة وغيرها من أشكال الخضوع والتبعية والاقطاعيين . وبظهور المدن دشنت موجة جديدة من الأحداث العاصفة التي رافقت تطور العلاقات النقدية ونقل البضائع . إذ خاضت هذه المدن نضالاً ضارياً ضد أسيادها الأقطاعيين في سبيل إدارتها الذاتية ، وفي سبيل تنظيم وتقليل الفرائض والأتاوات الأقطاعية . وبعد فترة من الزمن تأجج الصراع داخل المدن بين الباتريسيين (نبلاء القرون الوسطى) ونقابات الحرفيين الطامحة إلى المساهمة في إدارة المدينة . وأخيراً تأجج الصراع بين الفئة المسيطرة في المدينة ومعلمي الحرف من جهة والصناع المدعومين من الفئات الفقيرة من سكان المدن من جهة أخرى .

وغالباً ما كان النضال الجماهيري في الريف يجد المساندة من جانب فقراء المدن . ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر أجتاحت أوربا بكاملها تقريباً موجة من الانتفاضات الكبيرة التي قام بها الفلاحون وفقراء المدن ، مثل انتفاضة (الرعاة) عام 1251م والحركة الشعبية عام 1320م في جنوب هولندا وفرنسا ، والحركة التي قادها دولتشينو في إيطاليا في السنوات 1305–1307م والانتفاضة التي ترأسها أليان مارسيل ، والتفاضة جاكيري في عامي 1357–1358م في فرنسا ، وانتفاضة آوت تايلير في إنكلترا عام 1381م وحركة يان هوس الثورية في بلاد التشيك في بداية القرن الخامس عشر . هذه الحركة التي تعد أعظم حركة في تاريخ أوربا في القرون الوسطى وقد كانت موجهة ضد الكنيسة الكاثوليكية وضد كبار الأقطاعيين وضد الإمبراطور الألماني وقد ساعدت هذه الحركة على تطوير الحركة الثورية في العديد من البلدان الأوربية .[1]

إن تطور العلاقات الرأسمالية في مدن إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد بعثت إلى النور ظواهر جديدة في ميدان الإيديولوجية . فقد نشأت في ذلك الوقت ثقافة جديدة هي الثقافة

البرجوازية المبكرة ، المسماة ثقافة النهضة . تلك النهضة التي شملت مختلف جوانب حياة المجتمع الأوربي ، تلك الحياة الجديدة التي أصبحت مغايرة لطابع الحياة في العصور الوسطى ، والنهضة بجوهرها ذات طابع علماني انبعثت من المدن الأوربية المتطورة .

إن أوائل الأيديولوجيين البرجوازيين كانوا يظنون أنهم ينهضون بالثقافة اليونانية والحضارة الرومانية القديمة لذا سميت الحرة كلها بالنهضة . وقد أيقظ الإنتاج الرأسمالي الناشئ الاهتمام بدراسة الظواهر الطبيعية . وهذا ما يفسر تعاظم نهوض التكنيك والعلوم الطبيعية الذي كان قد بدأ في القرن الخامس عشر .

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر حدث انعطاف جذري في تطور العلوم الطبيعية ، فخلافاً لعقائد الدين السائدة آنذاك ، بدأت الدراسة الطبيعية استناداً إلى التجربة وأحرزت نجاحات باهرة بالنسبة لذلك الوقت في ميدان معرفة قوانينها . وتمت الاكتشافات العلمية في جو من النضال العنيد ضد النظرة الأقطاعية الكاثوليكية القديمة إلى العالم . ونشأت نظرة جديدة إلى العالم تطرقت إلى جميع وجوه حياة الإنسان الروحية ، إلى العلم والأدب والفن ، وكان ذلك إنقلاباً تقدمياً بالغ العظمة .

وهكذا نلاحظ أن أوربا بدأت تخط الخطى بأتجاه العصر الحديث ، والإبتعاد عن مخلفات وقيود القرون الوسطى من خلال الاهتمام الكبير الذي أولته للإنسان ، وحرية الإبداع ، والبحث العلمي ، وأفكار التجديد والنهوض من القرون الوسطى التي نادى بها العديد من الأدباء والفنانين والمفكرين والفلاسفة والمصلحين الذين شكلت آرائهم وأفكارهم وإبداعاتهم في مختلف المجالات حجر الأساس في النهضة الأوربية . فما النهضة ؟ ومتى بدأت ؟ وما عوامل قيامها ؟

معنى كلمة النهضة :-

إن كلمة (النهضة) اصطلاح حديث بدأ استعماله منذ عام 1830م ، والمعنى الحقيقي لهذا الاصطلاح ما زال قيد الدراسة وموضع الجدل من أجل الوصول إلى معنى حقيقي أكثر دقة ووضوحاً . وتفسر كلمة (النهضة) بالعديد من التفسيرات وأعطيت العديد من المعاني ، وهذا يعود إلى اختلاف الدراسات التاريخية والفلسفية والاقتصادية والدينية والأدبية والفنية التي تناولت هذه المرحلة من التاريخ الأوربي . ومع هذا الاختلاف يكاد يكون هنالك إجماع حول وجود معنيين لكلمة النهضة ، معنى ضيق ، ويقصد به حركة التجديد والبعث والإحياء والنهوض للحضارة الكلاسيكية اليونانية والرومانية ، أما المعنى الواسع لهذه الكلمة فهو ذو مدلولات واسعة تشمل تلك التغيرات التي طرأت على المجتمع الأوربي في حياته السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والثقافية ، والفنية ، والأدبية ، والدينية ، والقانونية ، التي سادت في العصور الوسطى . وقد رافق هذه التغيرات تحرر العقل الأوربي من قيود القرون

الوسطى ، تلك القيود التي كبلته زمناً طويلاً ، وشعور الإنسان بالحرية والاستقلال ومقدرته على الإبداع والتعبير عن أفكاره وأحاسيسه بالضد من هذه القيود ، وبشكل خاص تلك القيود وتلك القوانين التي أوجدها وابتدعتها وفرضتها الكنيسة من اجل إخضاع المجتمع لسلطتها الدينية وتوجيهه بحسب إرادتها ، مما تتطلبه مصالحها ، حتى وإن كان ذلك يتعارض مع مبادئ الديانة المسيحية .

لقد ظهرت حركة النهضة في بداية الأمر في إيطاليا ، لتوفر الظروف المناسبة لها قبل غيرها من البلدان الأوربية الأخرى ، وذلك قبل منتصف القرن الرابع عشر ، في حين لن تظهر في بلدان أوربا الأخرى إلا في وقت متأخر من الزمن ، واستمرت في بعضها الآخر حتى نهاية القرن السابع عشر [2].

وبما أن عصر النهضة يشكل مرحلة إنتقالية تقع بين العصور الوسطى والعصر الحديث ، فلابد لنا من الوقوف عند سمات هذه المرحلة .

سمات عصر النهضة :-

أولاً : ظهور الحركات الشعبية والديمقراطية التي تناضل ضد سلطة الأقطاع ، وسلطة الكنيسة ، باعتبارها اكبر مالك للأراضي ، وضد الكهنة والرهبان ، بوصفهم ممثلي الطبقة الحاكمة ، وضد الفرائض الأقطاعية وفرائض الكنيسة ، كما حدث في مدن الاتحاد السويسري ، وفي فرنسا ، وفي إنجلترا ، وفي بلاد التشيك ، في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

ثانياً : اتسمت هذه المرحلة ، بالتطور العلمي والثقافي وحرية البحث العلمي ذي الطابع التجريبي والعلماني ، بعد ما كان مقتصراً على الكنيسة وأوساطها في القرون الوسطى ، وخاصة في المدن الإيطالية المتطورة . ولكن في الوقت الذي بدأت فيه معالم المعرفة القديمة بالتلاشي لم تتكون بعد معرفة جديدة ، كون أساليبها كانت في مراحلها الأولى ، ولذلك فإن الفكر الأوربي قد سار باتجاهين : التردد والاستكانة أولاً والاندفاع والتسرع ثانياً [3] .

ثالثاً : ظهور الحركات الدينية الإصلاحية المناهضة للكنيسة في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر .

لقد تميزت هذه المرحلة بظهور العديد من المفكرين والمصلحين ، وقيام العديد من الحركات الدينية والإصلاحية في أوربا الغربية مثل :-

1- حركة الأمراء المعادين والمعارضين لإتساع نفوذ البابوية ، وقد كان على راس هذه الحركة الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، الذي نشأ في صقلية في جو من الثقافة الإسلامية الذي خلفها العرب المسلمون ، والثقافة الغربية التي أدخلها النورمان ، فأجاد ست لغات بما فيها العربية ، وشغف بالعلوم والأداب ، ويعتقد أن عصر النهضة

الإيطالية قد بدأ في عصر فردريك الثاني وفي بلاطه بالذات ، وقد أتخذ فردريك الثاني خطـاً عدائياً للبابوية وركز على إبراز مفاسدها ، وكاتب أمراء أوربا يستنهضهم ضد الكنيسـة وبالبابا الذي يتدخل في كل شيء ، وتمكن من ذلك وجرح الكنيسة واسقط هيبتها [4] .

2- حركة الرهبان المسيحيين الأوربيين المتمثلة بالفرنسيكانيين والدومينيكانيين ، وجاءت تسـمية الحركتين نسبة إلى القدسين فرنسيس ودومنيك ، وكان همهما إصلاح الكنيسة من الأخطـاء والمفاسد التي تقوم بها .

3- حركة البروفيسور جون ويكلف ، الذي كان أستاذا مشهوراً في جامعة اكسفورد الإنجليزيـة ، وقد حظيت آراؤه الإصلاحية بتأييد فقراء القسس . وقام ويكلـف بترجمـة الإنجيـل إلى الإنجليزية ، لغة الشعب المحلية ، الأمر الذي كشف لعامة الناس الانحرافات والمفاسد الـتي تمارسها الكنيسة ، مما أدى إلى اتساع حركته ، الأمر الذي أثار غضب الكنيسة التي أمـرت بحبسه واصدرت بعد موته مرسوما يقضي بنبش قبره وإحراق عظامه .

4- حركة جون هس البوهيمي في بوهيميا ، الذي نادى بأن لا وساطة بين الإنسان والـرب إلا عن طريق الإيمان والعمل بما جاء في الكتاب المقدس . وهنا يلتقي هس وجون ويكليـف في هذا المبدأ ، وكانت الحركتان تسعيان إلى تقليص سلطة البابوية وإلغاء الدور الذي يقوم بـه القسيس بوصفه وسيطاً بين الفرد وربه .

5- ظهور عدد من الحركات الهرطقية ، مثل حركة السياطين ، التي ظهرت بعد الوباء الذي عـم أوربا خلال حرب المائة عام الإنجليزية الفرنسية ، ويعتقد أصحاب هذه الحركة أن لا نجـاة من هذا الغضب الرباني إلا بتطهير

6- النفس ، وذلك عن طريق تعذيبها بضرب الجسد بالسياط لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً ونصف يـوم . وحركة الألبيجنسيان التي قامت في بلدة ألبي في جنوب فرنسا ، وحركة الولدانسية في جنـوب فرنسا كذلك . وقد هدفت هذه الحركات الهرطقية إلى مقاومة البابوية وهدمها ، الأمر الـذي أدي إلى ظهور فكر جديد هو فكر النهضة الأوربية [5] .

رابعاً : ظهور القوميات :-

إن ظهور العلاقات الرأسمالية وتطورها اللاحق قد أثرا تأثيراً بالغـاً علـى النظـام الاجتمـاعي والسياسي في أوربا .

إن عملية تكون الأقوام كانت قد بدأت في حقبة تفسخ النظام المشاعي البدائي . (والقوم) هو عبارة عـن تشكيلة تاريخية ظهرت بعد العشيرة والقبيلة . ففي البلدان التي كانت تتطور فيـها علاقـات العبوديـة أخذت الأقوام تتكون جنباً إلى جنب مع نشوء نظام الرق . أما في البلدان التي تجنبت نظام العبودية ، فقـد

البشرية بوجه عام ، والحضارة الأوربية بشكل خاص . فهم من حملوا المشاعل الفكرية والعلمية التي أنارت ظلمات أوربا القرون الوسطى ، من خلال ذلك الموروث الحضاري الفلسفي والفكري والعلمي الغزير الذي أنتقل إلى أوربا ، واسهم مساهمة فعالة في قيام نهضتها . مثل فلسفة أبن رشد التي عملت على تعريف أوربا لأول مرة بأرسطو الحقيقي ، وحملت إليها نظرية ابن رشد في الفصل بين الدين والفلسفة على أساس أن كلاً منهما يشكل بناء مستقلاً بذاته ، تؤسسه أصول ومبادئ خاصة به ، وقد نتج عن ذلك صراع شديد في أوربا بين الفلسفة والكنيسة ، وبين العلم واللاهوت ، وكانت النتيجة انتصار العقل واستقلال العلم . وكان للحسن بن الهيثم والعالم الفلكي الأندلسي نور الدين أبي إسحاق البطروجي أكبر الأثر في النهضة العلمية في أوربا . فقد رأى أبن الهيثم طريق الحقيقة في العلم وتحديدا في علوم المنطق والطبيعيات ، وكانت اتجاهاته نقدية عقلانية ، وكما كانت أبحاث ابن الهيثم أساسا لفيزياء الضوء في أوربا الحديثة . كانت آراء البطروجي الفلكية حاضرة في الثورة التي عرفها علم الفلك في أوربا على يد كل من نيقولا كوبرينك (1473–1543) وكيلر (1571–1630) ، ويمكن القول بلا تردد أن النهضة الأوربية الحديثة ظهرت على أساس النهضة العربية الإسلامية وامتداد لها .[14]

فإذا كان هكذا دور الحضارة العربية الإسلامية بالنسبة للنهضة الأوربية ، فنرى من المفارقة والمغالطة أن يعد المفكر الأسباني « ألبرنث » ومن سار في ركبه من الباحثين الأسبان ، أن الوجود العربي الإسلامي في أسبانيا كان سبباً في عرقلة تطورها وتأخرها عن البلدان الأوربية الأخرى . فهم بذلك يتجاهلون وجود حضارة أقامها المسلمون من عرب وغيرهم ، في الأندلس تعد من أرقى الحضارات في العالم حتى يومنا هذا . حيث كان الفتح الإسلامي لأسبانيا سبباً في رقيها رتطورها في مرحلة كانت فيها أوربا تعيش في ظلمات القرون الوسى ، ومع أن العرب المسلمين دخلوا اسبانيا فاتحين وذلك لنشر الإسلام إذ قال عقبة بن نافع مقولته الشهيرة« والله لو علمت أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته غازيا في سبيل الله » ، فهم لم يتعاملوا مع أهلها كما تعامل الأوربيون مع سكان البلدان التي غزوها خلال الحملات الصليبية ، وخاصة بلدان المشرق الإسلامي ، وتحديدا البلدان العربية ، إذ قام الصليبيون بالمذابح الجماعية التي طالت الأطفال والشيوخ والنساء . فقد قتل قائد القوات الصليبية ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد (2700) أسير من أهالي عكا بعد أقتحمها الصليبيون من غير أن يضطرب له ضمير ويهتز له بدن .[15] لقد دمر الحقد الصليبي مدن بأكملها ، وحل الخراب ببعضها الآخر ، وعطلت ودمرت هذه الحروب كل وسيلة للعلم والتطور الثقافي والحضاري . ناهيك عن السلب ، والنهب ، والظلم ، والتعسف ، والتسلط ، الذي مارسه الصليبيون في الإمارات التي أقاموها في الشرق .

فلماذا لم ينظر الباحثون الأسبان إلى هذا الواقع المأساوي ، الذي حل بالبلدان العربية الإسلامية ، وعرقل تطورها ، وكان سببا في تأخرها لزمن طويل . أم أنهم يعدون هذا تطورا ودخول العرب إلى أسبانيا

، والجغرافيا، والرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والطب [11] . وقد تسربت هذه العلوم والمعارف من العالم الإسلامي الذي أجتاحته الحروب الصليبية . ولكن بعض الكتاب ، والمفكرين ، والمؤرخون الأوربيين ينكرون على الحضارة الإسلامية تأثيرها على الحضارة الأوربية بشكل عام ، ودورها الكبير الذي لعبته في قيام النهضة الأوربية بشكل خاص . ويعتقد هؤلاء أن سبيل خروج (الشرق) من " جهالته الجهلاء " ومن " تعصبه " هو الإندماج في تاريخ الغرب ، وتقبل الاستعمار على انه مرحلة ضرورية لذلك . فبشر أحد المفكرين الكبار في أسبانيا المعاصرة وهو كلوديو سانشيس البرنث CLAUDIO SONCHEZ ALBORNOZ ، الذي شغل منصب رئيس حكومة الجمهوريين في المنفى أبان الحرب الأهلية الأسبانية ، إن سبب تأخر أسبانيا عن باقي البلدان الأوربية هو دخول العرب المسلمون إليها ، والذين أتوا بحضارة ومفاهيم " متحجرة " تعوق التقدم ، مما " عطل " أسبانيا عن اللحاق بركب التاريخ . وهو يفسر " نبوغ " مفكري وفلاسفة الأندلس ، بسريان الدم الأسباني في عروقهم نتيجة تزاوج الفاتحين العرب والأسبانيات ، والذي هو تزاوج أدى إلى " الدثار " الدم العربي وغلبه الدم الأسباني عليه مع مر السنين .[12] وذهب " هنري كوربان H. CORBIN " إلى أن الفلسفات الإشراقية الفارسية الإيرانية " أسمى " ما أثمرته "العقلية الآرية " داخل الإسلام نفسه . ويعني هذا أن أية إضافة أو تقدم أو تطور ، لن يأتي من الإسلام ذاته ، أو من الجنس العربي ، والذي هو جنس " سامي " ، بل هو من خارجهما ، أي ماله صلة بالغرب نفسه أو بالمسيحية أو بالعرق الآري . أي أنه لم يكن هناك سوى تاريخ وا-د ، أما التواريخ الأخرى فهي مجرد توابع له ... بل هي تواريخ معاقة وعاجزة عن التطور بفعل الطبيعة والعرق والدم.[13]

أن هذا النموذج من الكتاب ، والمفكرين ، والمؤرخين الأوربيين ، يتسمون بالتفرقة العنصرية وبالفهم الضيق لأحداث التاريخ العالمي ، ويجهلون الحضارة العربية الإسلامية ، ويحملون هم أنفسهم مفاهيم وآراء متحجرة تحمل في طياتها طابعاً استعماريا وموقفا غير ودي من الحضارة العربية الإسلامية ، ويلبسونها أثواباً لم يسبق أن ارتدتها في أسبانيا . فلو كان الأمر كما يدعون فلماذا يبقون على تلك الآثار وتلك الشواهد المادية التي تذكرهم كل يوم بعظمة الحضارة العربية الإسلامية ، والتي تملئ الأراضي الأسبانية ، أمثال قصر الحمراء الذي يعد واحدا من روائع الفن المعماري الإسلامي . فهم مهما اختلفت مشاربهم الفكرية وانتماءاتهم القومية ، ومهما تعددت حججهم الواهية ، ودوافعهم الذاتية ، لا يمكن إنكار الحقيقة التاريخية التي تؤكد الدور الكبير الذي لعبته الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية ، وباعتراف الأوربيين أنفسهم .

وفي الوقت الذي نؤكد فيه عالمية الحضارة العربية الإسلامية ، لا ننسى دور كثير من العلماء المسلمين غير العرب في إغناء الحضارة العربية الإسلامية . ناهيك عن الدور الكبير الذي قام به العلماء العرب ممثلو هذه الحضارة وموطنها الأصلي في تطوير مختلف مجالاتها ، وما قدموه من خدمة للحضارة

وصلها الصليبيون إلى أشد أنواع الاستغلال ، والاضطهاد ، والعذاب ، الذي لا رحمة فيه . إن الدمار الذي نتج عن هذه الحملات لم يشمل البلدان الإسلامية في آسيا ، وأفريقيا ، التي أحتلها الصليبيون بل شمل أيضا دولا مسيحية ، مثل الدولة البيزنطية ، بل عم الدمار كل شيء أعترض طريقهم ، وعم الموت كل من رفض الانصياع لهم وتنفيذ أوامرهم . وفي نهاية الأمر أضطر الصليبيون تحت ضغط الشعوب الإسلامية الثائرة إلى الانسحاب من منطقة البحر المتوسط والأماكن الأخرى التي احتلوها ، غير أن الحملات الصليبية لم تمر من غير تأثير بالغ بالنسبة لأوربا . فقد ساعدت هذه الحملات على تنظيم الصلات التجارية بين الشرق والغرب ، وساعدت بشكل عام على تطوير العلاقات البضاعية والنقدية في أوربا .

لقد اقتبس الصليبيون في أثناء هذه الحملات التي قاموا بها ضد الإسلام والمسلمين ، وضد منطقة الشرق الأدنى بشكل خاص ، جملة من المنجزات الثقافية والتكنيكية المهمة التي لم تكن معروفة في أوربا الغربية . إذ أخذت تتطور فيها فروع إنتاجية جديدة مثل صناعة الحرير ، وصناعة الأسلحة ، وغيرها من الصناعات الأخرى ، وظهرت مزروعات جديدة مثل الأرز ، والقمح ، والشعير ، والبطيخ ، وغيرها [10]

إن احتكاك الأقطاعيين الأوربيين بحضارة مادية أرقة في شرقي البحر المتوسط وفي المناطق الإسلامية التي سيطروا عليها ، قد وسع حاجتهم وأدى بالنتيجة إلى تشديد استغلال الجماهير الشعبية . وكان هذا أحد العوامل التي عجلت في تفاقم التناقضات الاجتماعية في أوربا الغربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وهذه التناقضات التي أدت إلى تغييرات جوهرية طرأت على المجتمع الأقطاعي الأوربي ، شكلت أساسا قويا في قيام النهضة الأوربية .

ثالثا : أثر الحضارة الإسلامية في قيام النهضة الأوربية :-

لقد عاشت أوربا في العصور الوسطى فترة مظلمة من التخلف والركود ، واختفت معالم الحضارة الرومانية تدريجيا من إيطاليا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وإنجلترا ، وغيرها من البلدان التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية ، ولم يبق أثر للحضارة والعلم والثقافة في أوربا الغربية إلا في المؤسسات الدينية من مدارس وأديرة ، وكانت البابوية هي التي تشرف على هذه المؤسسات ، وتوجهها توجيهاً دينياً ضيقاً ، يخدم مصالح الكنيسة وإطاعة قوانينها المتزمتة التي تهدف إلى إبقاء الناس في حالة خوف وخضوع أعمى لسلطتها بشكل مستمر .

وفي الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش هذه الحالة من التخلف الشامل ، كانت الحضارة الإسلامية بمختلف علومها ومجالاتها في حالة ازدهار وتطور ، وكان اثرها كبيراً في النهضة الأوربية ، وشكلت عاملاً من عوامل قيامها ، وقد شمل هذا التأثير الآداب ، والعلوم ، والفنون ، والفلسفة ، والفلك

أما مدينة موسكو التي يرجع نشؤوها إلى القرن التاسع فقد أخذت تتطور بشكل سريع جداً منذ أواسط القرن الثاني عشر ، متحولة في القرن الثالث عشر إلى عاصمة إمارة موسكو . وكانت الدول الروسية تبنى على المخطط نفسه الذي بنيت عليه مدينة موسكو تقريبا ، حيث كان الكرملين يقع في مركز المدينة ، وهو عبارة عن بقعة محصنة محاطة بالأسوار السميكة والخنادق ، يسكنه الأمير أو حاكم المديرية مع حاشيته وعصبته العسكرية . وكانت تقع حول الكرملين بلدات يقطنها التجار والحرفيون .

وكانت المدن الروسية القديمة تتاجر مع منطقة الفولغا ، والقوقاز ، والدولة البيزنطية ، وآسيا الصغرى ، وإيران ، والبلدان العربية ، وحوض البحر المتوسط ، وقامت صلات تجارية واسعة بين روسيا والمناطق الساحلية السلافية ، وأسكندينافيا ، وبلاد التشيك ، وهورافيا ، وبولونيا والمجر ، وألمانيا وغيرها من البلدان الأخرى [9] وقد كانت هذه المدن الأوربية بمثابة مراكز للإشعاع الحضاري ، والفكري ، والفني ، والديني ، والسياسي ، والقومي ، ناهيك عن مهمتها الاقتصادية . وتحتل المدن الإيطالية الصدارة في هذا المجال ، كونها تمثل الينبوع الذي تفجر منه المذهب الإنساني الذي وضع اللبنات الأولى في صرح النهضة الأوربية ، وخاصة فلورنسا التي حكمت فيها أسرة محبة للآداب الإنسانية والفنون القديمة ، وهي أسرة "آل مدتشي". ومدينة روما التي تميزت بفنها الديني واحتوائها على الأكاديميات التي قامت بدراسة الآداب اللاتينية والآثار الرومانية القديمة .

ثانيا الحروب الصليبية :ـ

في الفترة الواقعة ما بين عام 1096م وعام 1270م أجرى ثماني حملات صليبية كبرى ، شارك فيها القاتل ، والمجرم ، والقرصان ، والسكير ، واللاعب ، والراهب ، والمحكوم عليه بالإعدام ، والملك ، والأمير ، والفلاح ، والتاجر ، والنبيل ، والغني ، والفقير ، وباختلافهم أختلفت الأهداف والأطماع . وقد راح ضحيتها خمسة ملايين من الأنفس ، وهذا العدد من القتلى يعد غاية في الضخامة بالنسبة لذلك الوقت . وبعد إنتهاء هذه الحملات عاد الكثير من الصليبيين الذين شاركوا في هذه الحرب من فلسطين ، وهم على ثقة تامة بأن الذين نشبت الحرب من أجلهم ، لا يستحقون هذه التضحيات الجسام . إذ أحس معظمهم بأن ما فعلوه لا علاقة له بالسيد المسيح الذي نادى بالحب ، والسلم ، والحرية ، والإخاء ، والتسامح .

ففي بادئ الأمر أسس الصليبيون في الأراضي المفتوحة في منطقة شرق البحر المتوسط عدة دول ذات أنظمة أقطاعية نموذجية . أما الفلاحون المشتركون في هذه الحملات فلم يحصلوا هنا على الأرض ولا على تلك الامتيازات التي وعدهم بها مؤججو هذه الحروب . وقد تعرض المسلمون في الأماكن التي

العوامل التي ساعدت على قيام النهضة الأوربية :-

لقد خضع قيام النهضة في أوربا إلى العديد من العوامل التي ساعدت على قيامها ، ارتباطاً بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في البلدان الأوربية ، واهم هذه العوامل هي :-

أولاً : ظهور المدن الأوربية :-

إن ظهور المدن الأوربية ، وإن كان في مرحلة القرون الوسطى ، يعد من أهم الأسباب التي فوضت النظام الأقطاعي الكنسي الذي كان سائداً في أوربا في القرون الوسطى . وكان ظهورها قد هز أركان هذا النظام هزاً عنيفاً . وهنا لابد لنا قبل الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبته هذه المدن في النهضة الأوربية من الإشارة إلى الكيفية التي تكونت فيها هذه المدن الأوربية .

تكون المدن الأوربية :-

إن الفلاحين الهاربين من القرية ، أو الذين غادروها بموافقة السيد الأقطاعي ، سعوا جاهدين لإيجاد أماكن مريحة لتصريف مصنوعاتهم الحرفية قرب مصادر المواد الخام ، ويكون فيها حالة من الأمن النسبي . وقد توافرت هذه الشروط قرب المقرات المحصنة للملوك والأمراء والأساقفة ، وحول مراكز المقاطعات الإدارية . كذلك سكن الأقنان الهاربون حول الأديرة الضخمة التي كانت محصنة كذلك . وسعى الفلاحون الذين غادروا القرية إلى التمركز في أماكن توقف القوافل التجارية ، وفي نقاط ملتقى الطرق البرية والمائية . ففي هذه الأماكن غالباً ما كان يجري تبادل البضائع بين التجار القادمين من مختلف الأماكن ، كما كانت تجري عمليات شحن وتفريغ البضائع . وغالبا ما كان التجار القادمون يشترون مصنوعات عمل الحرفيين الساكنين في هذه الأماكن ، ويستخدمون كذلك الفلاحين بصفة حمالين ونقالين على القوارب وعلى الحيوانات وحراسا للسلع التجارية في هذه الأماكن . وأشهر هذه المدن هي المدن الإيطالية والفرنسية والروسية . وكان لصلات إيطاليا ، وجنوب فرنسا التجارية مع الدولة البيزنطية ، وبلدان الشرق الأدنى ، وخاصة تلك البلدان الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، الإسهام الكبير في تطور المدن الإيطالية مثل : البندقية وجنوا وبيزا ونابولي والفرنسية : مارسيليا وآرل واربونة ومونبيلية ، كما أسهمت هذه العلاقة في تطور مدن كثيرة غيرها . ومنذ القرن الثامن ، أخذت المدن تظهر في إيطاليا وفرنسا باعتبارها مراكز للحرف التجارية ، وظهرت المدن على إمتداد نهر الدانوب ونهر الراين وفي إنجلترا في القرنين العاشر والحادي عشر [8] .

وأما المدن الروسية القديمة فكانت كييف اشهرها وذلك في القرنين العاشر والحادي عشر ، وكانت نوفغورود أيضاً في ذلك الوقت مركزاً تجاريا وحرفياً كبيراً . كذلك لعبت مدن تشيرنيغوف وسمولينسك وبولوتسك دوراً كبيرا في الحياة الاقتصادية في روسيا القديمة .

تكونت الأقوام في آن واحد مع نمو العلاقات الأقطاعية . وفي مرحلة الأقطاعية المتطورة تم تكوين الأقوام في العديد من بلدان آسيا وأوربا [6] .

إن تطور العلاقات الرأسمالية قد استتبع عملية تكون الأمم على أساس الأقوام الموجودة . وقد جرت هذه العملية على أساس الاقتصاد المشترك والدولة السياسية المركزية . فتعزيز الروابط الاقتصادية بين مختلف المناطق داخل البلاد أوجد الظروف لظهور اللغة المشتركة وتطور الثقافة القومية .

ومع بداية العصر الحديث ، ظهرت في أوربا وعلى وجه الخصوص في أوربا الغربية أشكالاً جديدة للحكم ، فالحدود القومية أصبحت تتضح معالمها بشكل متزايد بعد ان كانت أوربا مقسمة إلى طبقات اجتماعية في القرون الوسطى في ظل النظام الأقطاعي السائد فيها .

وكانت الدول القومية تشق طريقها في خطوات بطيئة ومضنية ، واتجهت شعوب أوربية كثيرة نحو التجمع على أسس قومية وضمن حدود واضحة في وحدات سياسية مستقرة نسبياً . ففي أواخر القرن الرابع عشر أصبحت سمات ظهور الأمم الحديثة واضحة المعالم ، فقد ظهرت الدولة القومية في بريطانيا أولاً حيث كانت لظروف ملائمة لنشأتها ، ثم في أسبانيا والبرتغال وفرنسا وفي الولايات الكبرى من مجموعة الولايات الألمانية .

وهكذا نلاحظ منذ بداية القرن السادس عشر إن كلمة إنجليزي أو فرنسي أو أسباني أصبحت تدل على أن ذلك الشخص ينتمي إلى شعب معين له تقاليده وتراثه ، وثقافته ، التي تميزه عن الشعوب الأخرى . وارتباطاً بذلك تحول الولاء القديم الذي كان للمدينة أو القبيلة أو الحرفه إلى الولاء للوطن ، ويعتقد بعض المؤرخين في هذه الفترة بالذات أن هذا الولاء الوطني بدأ يحل محل الولاء للدين في أوربا .

خامساً : الفصل بين الكنيسة والدولة :

إن نمو الشعور الوطني في البلدان الأوربية ، شكل خطراً على البابوية والكنيسة بشكل عام . وقد تمثل هذا الخطر بإنتماء المواطن الأوربي إلى الوطن وإلى الأمة أكثر من انتماءه إلى الكنيسة ، الأمر الذي جعل للدولة سلطة على مواطنيها بحكم هذا الانتماء الوطني ، واضعف سلطة الكنيسة الخارقة وهيبتها بين المواطنين ، وشجع المواطن على الاتجاه نحو الحركات الوطنية والإصلاحية الدينية ومساندتها . ويؤكد بعض رؤساء الحركات الدينية المناهضة للكنيسة ، مثل جون ويكليف الإنجليزي وجون هس البوهيمي ، أن المهمة الأساسية لرجال الدين هو ممارسة الواجبات الدينية ، وترك الأمور الدنيوية والمسائل العلمانية للدولة ، ورفض وساطة الكنيسة بين الإنسان وربه ، وطالب ويكليف بتحديد أملاك الكنيسة وذلك بضم قسم من أملاكها إلى الدولة [7] .

تخلفاً ؟!! إن هذا الموقف يعبر عن ضيق الأفق القومي والنظرة الأحادية الجانب للأحداث التاريخية ، وعن فكرة كون الهوية الأوربية متفوقة بالنسبة لسائر الشعوب والثقافات غير الأوربية . ولم يجد هؤلاء من تبرير لتخلف أسبانيا عن البلدان الأوربية الأخرى سوى تحميل المسلمين العرب ودخولهم إلى الأندلس تبعات ذلك ، متجاهلين الاسباب الحقيقية لهذا التخلف ، مقارنة بالدول الأوربية الأخرى ، هذه الدول التي كانت تتهيأ بكيفية عقلانية وهادئة للانتقال إلى العصر الحديث ، وبدأت تتبلور فيها قوى إنتاجية جديدة ستعمل على تطوير المجتمع والخروج به من ظلمات العصور الوسطى ، وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الدول تبني نفسها اقتصاديا وصناعيا وتاريخيا ، ظلت أسبانيا تنفق أكثر مواردها الأتية من وراء البحار ، من ذهب وما سواه على التسلح ، لتكريس هيمنتها على الأراضي الجديدة وتوسيع مشاريعها الاستعمارية . فإلى هذا السبب وغيره من الأسباب الأخرى يعود تخلف أسبانيا وليس كما يدعي ((ألبرنث)) وأنصاره من أنه يعود إلى دخول الحضارة العربية الإسلامية إليها ، هذه الحضارة التي كان لها الدور الكبير في قيام النهضة الأوربية ، وباعتراف الأوربيين أنفسهم من خلال مؤلفاتهم التي لا حصر لها . مثل موجز تاريخ العالم لهربرت جون ويلز الذي يشير إلى الدور الكبير الذي لعبه الفكر العربي الإسلامي والعلوم الإسلامية في النهضة الأوربية ، بل وتأثيره في العالم بأسره إذ قال (لقد حقق العرب المسلمون في حقول العلوم الرياضية ، والطبية ، والطبيعية ، ضروبا كثيرة من التقدم ، فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة . ولا يخفى إن اسم ((الجبر)) نفسه لفظ عربي وكذلك كلمة ((كيمياء)) ثم أن أسماء نجوم كنجم الغول والديران والعواء تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطباق السماء . وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحي كافة) . (16)

ويواصل ويلز قوله (... ولا شك أن المسلمين وفقوا إلى مستنطبات في المعادن والتطبيق الفني كثيرة ولها قيمة كبيرة جدا ، فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور وزجاج العدسات) . (17)

ويقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون في وصفه منجزات الحضارة العربية الإسلامية وحيويتها ((يكفي أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ، ولغة راقية ، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم ، وانهم استطاعوا في أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من انظر الحضارات التي عرفها التاريخ . وأن ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة . وأن العرب أقاموا دينا من أقوى الأديان التي سادت العالم ولا يزال الناس يخضعون له)) . (18)

رابعـاً :-

أدى سقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية على يد الأتراك العثمانيين عام 1453م إلى هجرة عـدد كبير من العلماء ، والأساتذة ، والمعلمين ، والأدباء والمفكرين ، والمهندسين المعماريين إلى أوربا ، وقد حمـل هؤلاء المهاجرون معهم جزءا كبيرا من المخطوطات الثمينة التي أحتوت على أعمال الإغريـق والرومـان القدامى ، وكل ما احتوته القسطنطينية من معالم ثقافية وأدبية وفنية ومعمارية جميلة كونها كانت عاصمـة الدولة البيزنطية لعشرة قرون من الزمن إلى المدن الأوربية التي أستقروا فيها ، وخاصة المدن الإيطالية الـتي اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب ، وقد أدى حماس الإيطاليين إلى كل ما هـو إغريقـي إلى الترحيب بهؤلاء المهاجرين وتعيين الكثير منهم معلمين ومدرسين ومحاضرين في جامعـاتهم . وهـذا يعـني الاهتمام الكبير في إيطاليا بالتراث اليوناني والروماني ودراسته ، الأمر الذي ادى إلى التقدم الفكري وقيـام النهضة ليس في إيطاليا لوحدها بل في عموم أوربا . [19]

خـامساً :-

كان لإختراع يوحنا جوتنبرج (1396–1468) للطباعة في القرن الخامس عشر الدور الكبير في النهضـة الأوربية ، وذلك من خلال مساهمتها في إخراج الناس من ظلمات وجمود العصور الوسـطى إلى العصـر الحديث . وقد تمت طباعة اول كتاب على حروف منفصلة عام 1454م ، وكان هـذا الكتـاب نسـخة لاتينية من الكتاب المقدس . وقد قام جوتنبرج بطباعته في مدينة ميتز في المطبعة التي عرفت باسمه . ودخلت هذه الطريقة إسلى إيطاليا في سنة 1466م ولم تأت سنة 1500م حتى أصبحت في أوربا حـوالي أربعـين مطبعة . واشتهرت إيطاليا بكثرة المطابع والطباعين مثل مطبعة ((الدوما نوتزيو)) في البندقية . وكان لهـذه المطابع وأصحابها فضل كبير على النهضة الأوربية من خلال تخفيض تكاليف النشر بنسبة كبيرة . الأمـر الذي ساعد الإنسانيين على نشر التراث الروماني والإغريقي بنصوصه الأصلية ، وعلى نطاق واسع مـن أوربا . [20]

سادسا : حركة الكشوف الجغرافية :

تتمتع حركة الكشوف الجغرافية التي شهدها النصف الثاني من القرن الخامس عشر بأهمية كبـيرة ، ليس للتاريخ الأوربي فقط بل وللتاريخ العالمي بأسره في تلك الحقبةالزمنية ، إذ تعد حركـة الكشـوف الجغرافية من العوامل المهمة التي ساهمت في النهضة الأوربية وانتقال أوربا من العصور الوسطى إلى العصـر الحديث . وقد سارت هذه الحركة في خط مواز لحركة إحياء التراث القديم وحركة الإصلاح الديني . وقد شغلت الجغرافية في عصر النهضة قسطا مهما من المعرفة الجديدة . [21] وإن حركة الكشـوف الجغرافيـة الأوربية كانت استمرارا لما قام به الفينيقيون والقرطاجيون ، من رحلات إلى سـواحل البحـر المتوسـط لتأسيس علاقات تجارية مع تلك المناطق . كما قام العرب المسلمون في العصور الوسطى برحـلات بريـة

وبحرية إلى مناطق إفريقيا الشرقية والهند والصين . واسهموا أكثر من غيرهم في حركة الكشف الجغرافي ، وفي مجال المعرفة الجغرافية . ويعد الإدريسي من أهم واكبر الجغرافيين العرب المسلمين في العصور الوسطى . ويعد كتابه (نزهة المشتاق في إختراق الآفاق) من أفضل الكتب في جغرافية العالم ، ويحتوي على معلومات صحيحة ومادة وافرة عن بلدان إسلامية وأوربية .[22]

إن حركة الكشوف الجغرافية العظيمة التي حدثت في القرن الخامس عشر ، وتصدرها البرتغاليون والأسبان كان وراءها العديد من الدوافع . أهمها دوافع تجارية بين أوربا والشرق ، وكان البحث عندهما مستمرا لاكتشاف طرق جديدة تربط أوربا بالشرق . ودوافع علمية جغرافية استكشافية ، تمثلت بنظرية كروية الأرض ودراسة الظواهر الجغرافية . ومن المعروف أن الجغرافيين العرب تقبلوا فكرة كروية الأرض قبل الأوربيين بقرون ، كما ورد في كتاب أبن رسته " الأعلاق النفيسة " في القرن العاشر الميلادي من أن الأرض مستديرة كالكرة قائمة في الهواء . فضلا عن الدوافع الاستعمارية التي دفعت البرتغاليين والأسبان إلى نهب الأراضي المكتشفة حديثا وتحويلها إلى مستعمرات تابعة لهما ، ومن هذا المنطلق شكلت الاكتشافات الجغرافية العظمى نقطة إنطلاق السياسة الاستعمارية عند الدول الأوربية . وأخيرا دوافع دينية ، دفعت البرتغال وأسبانيا بوصفهما دولتين مسيحيتين للقيام بالكشوف الجغرافية من أجل نشر الديانة المسيحية في المناطق التي يكتشفونها ، أو يصلون إليها ، ويرون أن الكشوف الجغرافية يجب أن تعمل على تحويل المسلمين في غرب إفريقيا وفي غيرها من المناطق إلى المسيحية ، وهذا ما يعكس سياسة التعصب والتزمت الديني والروح الصليبية عند البرتغال والأسبان ضد الإسلام والمسلمين ، وقد تجلى ذلك بوضوح في تضييق هاتين الدولتين الخناق على القوى الإسلامية في الأندلس .

مظاهر النهضة وأشهر روادها :

أتخذت حركة النهضة مظهرين تمثلا بإحياء التراث الأدبي الكلاسيكي وإحياء الفن القديمين ، وقد كان هذان المظهران وثيقي الصلة فيما بينهما وسنلقي الضوء عليهما فيما يأتي :

أولاً : المظهر الأدبي :

ويسمى بالحركة الإنسانية ، ومثلوا هذه الحركة يسمون بالإنسانيين وأشهر رواد هذا المظهر هم :

دانتي أليجيري (1265-1321م) :

ولد دانتي في مدينة فلورنسا عام 1265م ، وقد نفاه اللورنسيون عام 1302م إلى رافانا ، وقد مات فيها عام 1321م ويعد دانتي من أوائل الشعراء والأدباء الكبار واشهر مؤلفاته هي ملحمته الشهيرة (الكوميديا الإلهية) التي تعد دعامة من دعائم الأدب العالمي ، وله كتاب آخر أسمه "الوليمة" طرح فيه موضوعات متعددة في السياسة والحكمة والأخلاق . كما وضع دانتي رسالة باللغة اللاتينية اسماها "الملكية" وقد اشار فيها إلى أن الحرب هي آفة التقدم وأن السلام العالمي يجب أن يكون هدف السياسة

والحكام .[23] ومع أن دانتي قد نظر إلى العالم من وجهة نظر رجل العصور الوسطى إلا أنه كان مبشراً للعصر الحديث ، ولذلك يعد من رواد النهضة .

فرانشسكو بترارك (1304-1374م) :

اشتهر بترارك بكتابة الشعر الغنائي الإيطالي ويعد اول وأعظم ممثل للجانب الإنساني في حركة النهضة الإيطالية وقد أكد بترارك على عظمة وجمال الأدب الكلاسيكي وقيمته باعتباره وسيلة للثقافة . وجمع بترارك مجموعة ثمينة من المخطوطات تبلغ حوالي المائتي مجلد بما فيها أعمال أفلاطون .[24] وقد تمتعت هذه المخطوطات باهمية كبيرة ليس فقط في عصر النهضة فحسب وإنما بعدها كذلك .

بوكاتشيو (1313-1375م) :

وهو أشهر تلاميذ بترارك وقد أشتهر من خلال عمله الرائع (ديكامرون) وهي مجموعة من القصص كتبت باللغة الإيطالية ، وقد دعا في هذه القصص إلى التمتع بملاذ الحياة ، ولم يتحدث عن الروح والفضيلة ويعد بوكاتشيو واضع أساس النثر الإيطالي [25] . وقد أعطى في كتابه دوراً كبيراً للجوانب الدنيوية بعيداً عن القيود الدينية .

فرنسوا رابله (1494-1553م) :

تميز رابله بكتابة الروايات الفكاهية الممتعة ، وهو أستاذ في علم التشريح وهو أول من شرح جثة إنسان مخالفاً بذلك أوامر الكنيسة والبابا علماً أنه عمل قسيساً ونشر ابحاثه في أسلوب مبسط وممتع [26].

ثانياً : المظهر الفني :

شمل هذا المظهر اتجاهات متعددة مثل :

التصوير والنحت والرسم وقد كانت النهضة في هذه الاتجاهات عودة إلى الطبيعة ، أي انها حررت الفن من القيود التي فرضتها عليه القرون الوسطى . وأشهر المدارس التي وجدت في إيطاليا ابان عصر النهضة هي : فلورنسا وأمبريا والبندقية واشهر رواد المظهر الفني هم :

ليوناردو دافنشي (1452-1519م) :

كان دافنشي نحاتاً ومهندساً وميكانيكياً ومخترعاً ورساماً ورياضياً ، وجمع بين الفن والعلم وكان شخصية فذة وفريدة من نوعها ، وكانت الطبيعة هي النموذج الحي لدافنشي في حياته الفنية ، ومن أشهر أعماله الفنية (العشاء الأخير) التي أستغرق رسمها ثلاث سنوات وتعد أعظم صورة أخرجها في عصر النهضة .

وأما رائعته الشهيرة (الموناليزا أو الجيوكوندا) فهي صورة لسيدة إيطالية أسمها الموناليزا جيرار ديني أي السيدة ليزا وهي نبيلة فلورنسية زوجت في السادسة عشرة من عمرها على كره منها أحد ضباط

مدينة فلورنسا يسمى فرانشكو زانوبي جيوكوندو في الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان زواجـــه منـــها للمدة الثالثة [27] . وقد استغرق رسم هذه اللوحة أربع سنوات ، كرس فيها دافنشي كل طاقته الإبداعيـة ليجعل منها تحفة خالدة عبر الزمن [28] . وتوجد هذه اللوحة في متحف اللوفر في باريس . وكان دافنشـــي يعشق الحقيقة ويستلهمها في البشر ، وحكم بالبطلان على جميع العلوم التي لا تعتمد على التجربة . وتعـــد لوحتا العشاء الأخير والموناليزا اشهر اللوحات في العالم كله [29] .

ميكيل انجلو بوناروتي (1475-1564م) :

يعد ميكيل أنجلو من عمالقة الفن في عصر النهضة ، إذ كان مصوراً ونحاتاً ومهندساً معمارياً ، قـلم بدراسة النماذج الفنية القديمة دراسة دقيقة . وكانت أشهر أعماله الفنية رسومات ســـقف الســـتين في كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان ، وهو سقف محراب البابا سكستوس الرابع ولهذا عرف باسم الســـتين . وقد أنجز هذا العمل الرائع والمبدع خلال أربع سنوات ونصف ابتـــداءً مـــن 10مـــايو 1508م حـــتى 10أكتوبر 1512م . ومن أشهر تماثيله تمثال (العذراء حاملة جسد المسيح (عليه السلام) فوق ركبتيـــها) ويعرف هذا التمثال بتمثال الرحمة [30] .

وأخذ ممثلو ثقافة النهضة يرمزون إلى جوهر الظواهر الإيديولوجية الجديدة بـــإصطلاح (الإنســـانية) . إذ أرادوا التأكد على الطابع الدنيوي للثقافة الجديدة وتحررها من التبعية الأقطاعيـــة والدينيـــة وقـــد أبـــرز الإنسانيون قيمة الشخصية الإنسانية .

ثالثاً : المظهر التاريخي والسياسي وأشهر رواده :

نيكولو مكيافلي (1469-1527م) :

ولد نيكولا ماكيافلي في فلورنسا في 3آيار 1469م ونشأ في أسرة برجوازية قديمة أسرة ماكيـــافلي وقد لعبت هذه الأسرة دور هام في التاريخ السياسي الإيطالي . وقد لعبت في هذا المجال دوراً كبـــيراً الآراء السياسية التي نادى بها الفيلسوف والمؤرخ الأيطالي نيكولو ميكافلي . فقد كتب في مؤلفه الأمـــير ، بـــأن الوسائل حسنة من أجل بلوغ الأهداف الشخصية والطبقية مثل ، العنف ، المكر ، الغدر ، القسم الكـــاذب ، الكذب والنفاق . فضلاً عن الفصل التام بين الأخلاق والسياسة ، والاعتراف بالمراعاة التامـــة لمصـــالح الحكام ، والنجاح هو الدليل القاطع في الحكم على الأعمال ، وأن الشعب في الدولة هو الأداة في تحقيـــق الأهداف السياسية العليا . ولذلك تختلف " إنسانية " عصر النهضة عنده اختلافاً جذرياً عـــن الإنســـانية الحقيقية .

وقد نال كتاب نيكولو مكيافلي " الأمير " الثناء والتقدير من جهة والانتقاد من جهة أخـــرى . فقد وصف بأنه من عمل الشيطان ، وبأنه فاتحة في علم السياسة ، وأن الدروس والتجارب الـــتي تناولهـــا

تستمد جذورها من الواقع لا من الخيال . ويعتقد مكيافلي أن السياسة إذا قصد بها فن الحكـم يجـب أن تكون مستقلة عن الأخلاق تماماً . أي لا مكانة للأخلاق في السياسة . فيجوز لمن يريد إنشاء دولـة قويـة والحفاظ عليها أن يلجأ إلى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة وجميع انواع الجرائم [31] . ويمكن للحـاكم أن يستخدم الرجال باعتبارهم أدوات لتحقيق أهدافه السياسية ، ثم ينبذهم نبذ النواة إذا تطلبت المصلحـة الاستغناء عنهم . وينصح مكيافلي الحاكم بأن يكون بعيداً عن تنفيذ الأحكـام والإجـراءات والتدابـير الصارمة ، ويوكل تنفيذها إلى مندوبية فيتعرضون وحدهم لسخط الجماهير ويبقى الحاكم بعيداً عن هـذا السخط . يقول : إذا تمسك الحاكم بالفضائل فإن هذه الفضائل سوف تقضي عليه لا محالة . وإذا مـارس الرذائل وجعلها أسلوباً لحكمه فإن هذه الرذائل ستجلب له الأمن والرخاء . وعلـى الحـاكم أن يرهـب رعاياه لكي يخشوا باسه وسطوته بدلاً من أن يكون محبوباً لديهم .

ويصف مكيافلي البشر بصفة عامة بأنهم قوم جاحدون للجميل يميلـون إلى الكـذب والغـش والخداع . ويطمعون في الكسب ويتحاشون تعريض انفسهم للأخطار . فهم يقفون إلى جانب الحاكم طالمـا يده سخية في العطاء وطالما الخطر بعيداً عنهم ، فإذا ما اقترب الخطر وأحدق بالحاكم فأنهم يتنكـرون لـه ويركنون إلى الفرار فيجد نفسه وحيداً . إن مكيافلي في كتابه الأمير قد خرج على تقاليد العصور الوسطى ، حيث نبذ الناحية الدينية وتجاهل تعاليم الأديان السماوية ، وابتعد عن الأخلاق الإنسـانية الحقيقيـة ، وأخضع كل شيء للسياسة ، وأن يكون الشعب أداة بيد الحاكم يستخدمها لتحقيق أهدافـه ومصالحـه الضيقة [32] .

لقد حظى وما يزال يحظى كتاب مكيافلي « الأمير » باهتمام كبير من الفلاسفة والساسة ، ويكاد الحكام مع مرور ثلاثة قرون على نشره عام 1531م وخمسة قرون على وضعه يعملون بما جـاء بـه مـن أحكام . فهو ما زال الملهم للكثير من رجال السياسة ومنفذيها في مختلف أنحاء العالم . ومـا زال يشـكل دستوراً ومرجعاً أساسياً في الحكم للمستبدين والمتسلطين والإرهابيين ومؤججي الحروب مـهما أختلـف مشاربهم ومهما كانت ذرائعهم ، وهو دستور ومرجع أساسي أيضاً للأنظمة الشـمولية ليـس في أوربـا القرون الوسطى لوحدها بل لكثير من الأنظمة الدكتاتورية الفاشية المعاصرة الـتي اضطـهدت شـعوبها وأرتكبت الجرائم السياسية الكبرى والاضطهادات الدينية التي عصفت بالعالم .

قال نابليون بونابرت عن كتاب «الأمير» إنه الكتاب الوحيد الذي يستحق القراءة . وقد درسـه وأستخدمه فريدريك الأكبر ملك بروسيا والمستشار الألماني بسمارك . كما أختاره الرئيس الإيطالي بنيتـو موسليني موضوعاً لأطروحته التي قدمها لنيل شهادة الدكتوراه ، أما هتلر فكان يضع هذا الكتاب بـالقرب من سرير نومه ويقرأ فيه كل ليلة قبل أن ينام [33] .

توماس مور (1478-1535) :

إن الشخصية الأخرى التي ألقت بظلالها على النهضة الأوربية هو توماس مور ، الذي يعد واحداً من أعلام النهضة الأوربية والفكر الأوربي الحديث . ولد توماس مور في لندن عام 1478م وكان والده من رجال القضاء . وتوماس مور كاتب وسياسي إنجليزي مشهور . أهتم بالدراسات الإنسانية التي كانت تتمثل آنذاك في اللغتين الإغريقية واللاتينية [34] . وهو مؤلف كتاب (اليوتوبيا) الشهير الذي نشر عام 1516م ويتضمن آراء توماس مور في السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع والدين والقانون ، وتتلخص أفكاره في إقامة الدولة المثالية أو المدينة الفاضلة التي لا مكان فيها للظلم والاستبداد والاضطهاد ، إقامة دولة حرة ديمقراطية تذوب فيها الفوارق الطبقية . ودعا مور إلى إقامة الاشتراكية التي توفر العدالة الاجتماعية وإلغاء الملكية الخاصة التي يعدها بلاء كبيراً على المجتمع وسبباً للظلم الاجتماعي ، ولا يزول هذا الظلم إلى بمحو الملكية الخاصة محواً تاماً ، وليست وظيفة الحاكم أن يعيش في بذخ وسط شعب يتضور جوعاً ويعاني من الأمراض والجهل والحرمان . ودعا كذلك إلى إيجاد نمط جديد من العلاقات الدولية بعيداً عن شبح الحروب المدمرة ، تحل فيه النزاعات الدولية بالطرق السلمية ، ودعا إلى حرية العقيدة والتسامح الديني .

إن السبب الحقيقي في دعوة مور لإقامة مثل هذه الدولة المثالية هو معايشته للنظام الرأسمالي في بريطانيا ومشاهدته اليومية للظلم والتعسف والاستبداد الذي يمارسه هذا النظام وافتقاره إلى العدالة الاجتماعية ، بسبب سوء توزيع الثروة وحصرها بيد نخبة محددة داخل هذا المجتمع ، ولذلك شن حملة عنيفة ضد الرأسمالية وأساس قيامها الملكية الخاصة .

لقد ظل توماس مور وفياً للمبادئ التي نادى بها ، وظل تقريبا من الشعب البريطاني ضد كل الإجراءات التعسفية التي فرضتها الملكية البريطانية ، غير مكترث بالمناصب الرفيعة التي أوكلت إليه في الحكومات البريطانية لكفاءته حتى أعدمه الملك هنري الثامن ، الذي أختلف معه حول الموقف من حركة الإصلاح الديني في إنجلترا وحول قضية طلاقه من زوجته كاترين ليتزوج من آن بولين . وعندما رفض مسايرة الملك في هاتين المسألتين وجه الملك إليه تهمة الخيانة . وأودع السجن لفترة سنة ثم حكم عليه بالإعدام عام 1535م [35] . ولكن حتى بعد إعدامه ظلت تلك الأفكار الراقية والمثل الفاضلة التي نادى بها مور معيناً أستقت منه أوربا الكثير من جوانب نهضتها ، وحفزت شعوبها على عملية التغيير والتجديد المستمر من أجل تحقيق تلك العدالة الاجتماعية التي نادى بها .

نتائج النهضة الأوربية : يمكن إجمال نتائج النهضة بما يلي :-

1. أدت حركة النهضة الأوربية إلى التحرر من قيود القرون الوسطى ، والاهتمام بالجوانب الطبيعية ، والعودة إلى الماضي الوثني في مجال الفن والأدب ، الأمر الذي ادى إلى الإبتعاد عن العرف

والجوانب الأخلاقية ، كما حدث في فلورنسا في الغناء والشعر والحب والرقص في الساحات العامة ، وقد دعا حاكم فلورنسا الشباب إلى التمتع بالحياة السعيدة قبل فوات الأوان لأن الزمن يمضي بسرعة .

2. ساعدت حركة النهضة على نمو الآداب والفنون القومية في الدول الأوربية ، وخاصة إيطاليا التي أثار الأدب فيها الروح القومية ، وخلق الشعور بالعظمة بين الإيطاليين فيما يتعلق بجنسهم وبلادهم ، وقد شكل هذا الشعور القومي أساسا للوحدة الإيطالية .

3. نشأت نظرة جديدة إلى العالم ، تطرقت إلى جميع وجوه حياة الإنسان الروحية في العلم والأدب والفن وتحرر الثقافة من التبعية الأقطاعية والدينية .

4. أدت الاكتشافات التي قام بها رجال النهضة إلى روح التجديد في مجالات مختلفة ، في العقيدة والسياسة والصناعة ، وتعاظم نهوض التكنيك والعلوم الطبيعية في أوربا .

5. قضت النهضة على احتكار الكنيسة للعلم ، من خلال قيام المدارس والجامعات الجديدة ، وتحرر العقل البشري من الخرافات والقيود التي فرضت على حرية الفكر والبحث العلمي .

6. رافق تطور الإنتاج الرأسمالي نشوء طبقتين متناحرتين ، هما البرجوازية والبروليتاريا ، وكان عدد البروليتارية يزداد على حساب الفلاحين ، والحرفيين ، والمنهوبين ، وكادحي المدن . أما البرجوازية فأصبحت الوريث الشرعي للأقطاع ، وإن ظهور البرجوازية بوصفها طبقة جديدة سيطرت فيما بعد على السلطة وعلى وسائل الإنتاج ، لن تنهي الاستغلال بل تمت الاستعاضة عن سيطرة الأقطاع بسيطرة البرجوازية .

7. أدت النهضة الأوربية إلى ظهور حركة الإصلاح الديني ، بزعامة عدد من المفكرين والمصلحين الذين أرادوا إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من مفاسدها والعودة إلى المبادئ الحقيقية للمسيحية .

8. إن النهضة الأوربية ظهرت امتدادا للنهضة العربية الإسلامية ، وذلك منذ اتصال الأوربيين بالحضارة العربية الإسلامية في القرن الحادي عشر ، وتفاعلهم معها وتم هذا الاتصال وهذا التفاعل من خلال وصول العرب المسلمين إلى الأندلس وجزيرة صقلية ، ومن خلال الحروب الصليبية .

9. وأخيرا العكست تجليات هذه النهضة وتأثيرها في حدوث الثورات البرجوازية في أوربا وخاصة الثورة الإنجليزية عام 1688م والثورة الفرنسية عام 1789م .

الهـــوامـــش

1. مجموعة من الأساتذة السوفيت . عرض اقتصادي تاريخي . دار الفارابي ، بيروت 1981،ص258.
2. ميلاد المقرحي . تاريخ أوربا الحديث 1453 - 1848. دار الكتب الوطنية ، بنغازي 1996، ص28.
3. عبدالمجيد نعنعي . أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعـاصرة 1453 - 1848. دار النهضـة العربيـة ، بـيروت 1983 ، ص16.
4. هربرت جون ولز . موجز تاريخ العالم . ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، القاهرة 1958،ص228 .
5. عبدالفتاح أبو عليه واسماعيل احمد ياغي . تاريخ أوربا الحديث والمعاصر . دار المريخ ، الرياض 1993 ، ص28 .
6. مجموعة من الأساتذة السوفيت . مرجع سابق ، ص277 .
7. هربرت جون ولز . مرجع سابق ، 234 .
8. مجموعة من الأساتذة السوفيت . مرجع سابق ، ص208 .
9. المرجع السابق نفسه ، ص277 .
10. المرجع السابق نفسه ، ص250 .
11. جوزيف نسيم يوسف . دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى . مؤسسة شباب الجامعـة ، الاسكندرية 1988، ص135 .
12. سالم يفوت . ابن حزم والفكر الفلسفي في المغرب والأندلس . المركز الثقافي العربي ، بيروت 1986 ، ص 35 .
13. سالم يفوت . حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي . المركز الثقافي العربي ، بيروت 1989 ، ص25 .
14. ميلاد المقرحي . مرجع سابق ، ص61 .
15. عماد الدين الكاتب . الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبـح ، القـاهرة 1965 ، ص512 .
16. هربرت جون ولز . مرجع سابق ، ص206 .
17. المرجع السابق نفسه ، ص208 .
18. حميد دولاب ضيدان . الجذور التاريخية للصلات العربية الإفريقية . منشورات مركز البحوث والدراسات الإفريقية ، سبها 1993 ، ص95 .
19. عبدالعزيز محمد الشناوي . أوربا في مطلع العصور الحديثة . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1985 ، ص31 .
20. ميلاد المقرحي . مرجع سابق ، ص62 .
21. هربرت فيشر . أصول التاريخ الأوربي الحديث : من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية . ترجمة زينب عصمـت راشـد واحمد عبدالرحيم مصطفى . دار المعارف ، القاهرة د.ت ، ص12.
22. يسري عبدالرزاق الجوهري . الكشوف الجغرافية . دار النهضة العربية ، بيروت 1984،ص91 .
23. عبدالعزيز محمد الشناوي . مرجع سابق ، ص63 .

24. عبدالعزيز سليمان نوار وعبدالمجيد نعنعي . التاريخ المعاصر أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية . دار النهضة العربية ، بيروت 1986 .
25. المرجع السابق نفسه .
26. عبدالعزيز محمد الشناوي . مرجع سابق ، ص52 .
27. المرجع السابق نفسه .
28. عبدالمجيد نعنعي . مرجع سابق ، ص16 .
29. ول ديورانت . قصة الحضارة . الجزء 19 ، ترجمة محمد بدران وآخرون ، جامعة الدول العربية ، القـاهرة 1967 ، ص243 .
30. ميلاد المقرحي . مرجع سابق ، ص37 .
31. لويس عوض . ثورة الفكر في عصر النهضة الأوربية . مركز الأهرام للترجمة والنشر ،القاهرة 1987 ، ص73 .
32. عبدالعزيز محمد الشناوي . مرجع سابق ، ص71 .
33. ميلاد المقرحي . مرجع سابق ، ص53 .
34. نور الدين حاطوم . تاريخ عصر النهضة الأوربية . دار الفكر 1968 ، ص74 .
35. عبدالعزيز محمد الشناوي . مرجع سابق ، ص90 .